القضايا الاجتماعية في الرواية النسائيّة السورية

روايتا (زينة) لوصال سمير، و (امرأة في عيون الناس) لنادرة بركات الحفار نموذجاً

ريم المخلف** أ.د. أنس بديوي*

(الإيداع: 14 تشرين الأول 2024 ، القبول: 13 تشرين الثاني 2024)

الملخص:

لعلّ الرواية النسائية السورية في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ سورية المعاصر تشكّل نقطة انعطاف في تاريخ الأدب السوري، لما تحمله من دلالات اجتماعية سياسية معرفية على غير صعيد.

إنَّ الانقلابات السياسية الاجتماعية التي أحاطت بالمجتمع السوري، أرخت بظلالها المعرفية الجمالية على الرواية آنذاك، ناهيك بأن خروج سورية من الاحتلال الفرنسي كان له الأثر البالغ في خلق نظام روائي اجتماعي بالغ الأهمية على وجه الخصوص.

لقد احتفظ المجتمع السوري بكثير من الأمراض الاجتماعية، والتقاليد البالية التي وقفت الرواية موقف التحدي منها، فكان الاستلاب و القهر الاجتماعي و الظلم من القضايا التي حاربتها المرأة، و دفعت لقاء ذلك ثمناً باهظاً في طريق الحرية الاجتماعية–المعرفية.

و بدت الرواية النسائية – مع تصاعدها الزمني– محوراً لتجاذبات عنيفة و صراعات غير معهودة بين المرأة و واقعها الأليم الذي نظرت إليه الروائيات بأشكال و مشارب متعددة.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الاجتماعية، المرأة، الظلم، التحدّي.

* أستاذ النقد الأدبي في قسم اللغة العربية بكلية الآداب– جامعة حماه.

**طالبة دراسات عليا– ماجستير– قسم الدراسات الأدبية– جامعة حماه.

Social issues in the Syrian women's novel

The novels Zeina (by Wissal Samir) and A Woman in the Eyes of People (by Nadera Barakat Al-Haffar) are examples

prof.Dr: Anas Bdiwi * **Reem Al-mekhlef** **

(Received: 14 October 2024 , Accepted: 13 November 2024)

Abstract:

The Syrian women's novel, at this delicate stage in Syria's contemporary history, is considered a turning point in the history of Syrian literature, because of the social, political and cognitive connotations it carries on many levels.

The social political upheavals that surrounded Syrian society cast their cognitive and aesthetic shadows on the novel at that time, not to mention that Syria's exit from the French occupation had a profound impact in creating a particularly important social novel system.

Syrian society has preserved many of the social ills and outdated traditions that the novel took a stand against. Alienation, social oppression, and injustice were among the issues that women fought, and for that they paid a heavy price on the path to social-cognitive freedom.

The women's novel - with its chronological escalation - seemed to be the focus of violent tensions and unusual conflicts between women and their painful reality, which women novelists viewed in multiple forms and perspectives.

Keywords: novel, social, woman, injustice, Challenge.

* Assistant Literary criticism professor in the department of Arabic language – Hama.

**Postgraduate student (Master), Department of Arabic language, Hama University.

المقدمة:

لا يمكن لنا أن نغفل دور الأحداث الكبرى التي شهدها النصف الثاني من القرن العشرين في تكوين البنية الروائية النسائية السورية على وجه الخصوص، فبقيت المرأة رهينة لكثير من القيود، و من هذه القيود الجائرة التسلط الذكوري الذي أنهك المستوى النفسي لدى المرأة، ناهيك بأنّ التنامي الإقطاعي السياسي قد عزّز التقاليد البالية والأمراض الاجتماعية الاستلابية التي رزحت المرأة تحتها طويلاً بعد الخروج من حقبة الاحتلال الفرنسي لسورية.

لقد كان الهاجس الاجتماعي البغيض ينظر إلى المرأة من زوايا لا تُحمد عقباها، فالزواج في سن مبكرة، و الرضوخ التام للزوج، و القمع المتواصل لتطلعات المرأة، إلخ...، أمور شكلت النواة الرئيسة لبناء الرواية النسائية، و قد حاولت الرواية الالتفاف على هذه المنعطفات الحادة و التسلط المستمر، فظهرت روايات تحمل الفكر الطليعي المتقدّم الذي يُظهر حقيقة المرأة السورية بوعيها و قدرتها على تخطي العقبات النفسية و الاجتماعية و الاقتصادية.

و علينا أن نذكر تلك الكثافة غير المعهودة في عرض شخصيات نسائية متنوعة على مستوى النوع و الكم في جسد الرواية النسائية و في أحداثها، و كأن الحدث الروائي في كثير من الأحيان يقتصر على النساء.

مشكلة البحث و الجديد فيه: يعرض البحث واقع المرأة السورية في مرحلة زمنية تحولية، و يمكن أن نطلق على تلك المرحلة (المخاض) الذي تعيشه سورية بعد مرحلة الاحتلال الفرنسي، و لهذا فإن الغموض يلف الكثير من الوقائع العميقة داخل بنية المجتمع السوري، ولا يمكن أن نطلق على تلك الوقائع العميقة عبارة (الفوضى) ولكننا بإزاء بناء التوازن الاجتماعي السياسي الذي يلف المجتمع السوري، ومن هنا فإن الجديد في البحث هو ذلك التطلع النسائي لبناء مجتمع حر خالٍ من الأمراض والتقاليد البالية في خضم ذلك المخاض.

أهداف البحث:

للبحث أهداف كثيرة يمكن تكثيفها فيما يلي:

1- إظهار علاقة المرأة بالمجتمع المحيط.

2- الرؤيا النسائية الخاصة بالتأليف والإبداع لواقع المجتمع.

3- أنماط التحدي التي قامت بها المرأة.

4- أشكال الوعي النسائي الذي عرضته الرواية.

منهج البحث: يشكّل المنهج الاجتماعي منهجاً خصباً للبحث، ذلك أنّ الوقوف على الأحداث و الانعطافات التي شهدتها حياة المرأة السورية يتطلب منا الاستعانة بأدوات المنهج الاجتماعي للغوص في أعماق تلك الظواهر الاجتماعية.

مصطلحات البحث:

آثر البحث الميل إلى مصطلح (النسائية)، بدلاً من مصطلح (النسوية) ذلك أن هذا المصطلح الأخير يبدو شائكاً متداخلاً قياساً على مصطلح (النسائية). فالحركة النسوية في أبسط تعريفاتها "تتحدى تقسيم العمل في العالم الذي يجعل الرجال يتكلفون بالمجالات العامة، العمل الرياضي، الحروب، الحكومة"[1]، و هناك من وجد أن ثمة تداخلاً بين مصطلحي (النسوية) و (النسائية) في الدرس النقدي الاجتماعي، فرأى "أنه من الصعوبة بمكان أن نرصد بدقة بداية التحرك النسوي ضد الاضطهاد الذكوري فمما لا شك فيه أن ذلك تزامن مع بداية تحكم النظام البطريركي الأبوي بالنساء، فأي ظلم يقع على أفراد أو جماعات لا بد أن يولد تحركاً مضاداً"[2]، إذ نرى في المقبوس السابق أن (الحركة النسوية) قد تطابقت مع (الحركة النسائية) اصطلاحياً.

[1] واتكنز،سوزان، و رويدا، مريزا، و رودريجوز، مارتا: الحركة النسوية، ترجمة: جمال الجزيري، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005، ص15.

[2] الرحبي، مية: النسوية مفاهيم و قضايا، الرحبة للنشر و التوزيع، دمشق، 2014، ص13.

أما مصطلح (النسائية) فعلى خصوبته و غناه و احتوائه الاصطلاحي الإجرائي على مصطلح النسوية، فإنه يعزز لدينا وضوحاً مرموقاً قياساً على مصطلح النسوية؛ إذ بدا مصطلح النسائية " في التاريخ الاجتماعي و النقدي ذا انعطافات مختلفة متنوعة استناداً إلى العلاقات الاجتماعية و السياسية التي تنطوي على كل ما تقوم به المرأة إبداعاً وعملاً"[1].

و لعلّ مصطلح القضايا الاجتماعية مصطلح قديم حديث معاً، إلا أن تبلوره قد ارتبط بمفهوم الانعكاس الماركسي عن علاقة الأدب بالواقع الاجتماعي، إذ يقوم الأديب " بتجسيد الواقع نموذجياً و تفسيره و الحكم عليه لمعرفته و تغييره عبر تجربته الذاتية الموضوعية، فيسهم في إبراز الواقع، و في الكشف عما هو (خاص وعام) معاً، (نموذجي و فردي) من خلال نظرية الانعكاس التي هي أساس فهم الفاعلية المعرفية للأديب"[2].

عرض البحث و المناقشة:

- **الظلم الاجتماعي:**

تُعَدُّ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين مرحلة انتقالية في الواقع السوري سياسيّاً، و اجتماعيّاً، و اقتصاديّاً؛ و لا سيما أنَّ المجتمع السوري قد خرج للتو من هيمنة الاستعمار الفرنسي، بيد أنَّ الكثير من الأمراض الاجتماعية مازالت مترسخة في عقلية الإنسان السوري، نتيجة لتراكمات حياتيّة سلبيّة عاشها الفرد السوري مدَّة طويلة من الزمن.

وكان للمرأة السورية نصيبٌ وافرٌ من الاضطهاد و الظلم و الضياع في بيئة يسودها الفكر الإقطاعي الاستلابي، إذ يشكّل "الضياع الأنثوي في الرواية السورية ظاهرة بارزة، لأنّ طبيعة حياة الأنثى في المجتمع التقليدي تلزمها أن تعيش – غالباً، منذ نعومة أظفارها – حياة القطيع، تأكل و تطبخ، و تنام، لتتحول إلى آلة تفريغ و تفريخ، برتوبة مملّة بصورةٍ عامة، و ليست حياتها في المجتمع الجديد بأفضل، فآفاق الحرية، و ميادين العمل، و تقليد الغرب أدّى بها في حالات كثيرة إلى نهايات مأساوية، لم يكن يعرفها المجتمع التقليدي المحافظ."[3]

إنَّ البؤر السلبيّة التي كانت ترزح تحتها المرأة السورية تنطوي برمتها على الاستلاب و الاضطهاد الذي تعانيه الأنثى في الرواية السورية، و (الاضطهاد) مصطلح شديد التعقيد في التعريفات الفلسفية والنفسية، غير أنّ الإجماع على أنّ هذا المصطلح يشير إلى "معاملة ظالمة وقاسية، قد تمضي إلى حدِّ تسبب الموت، يتكبدها بعض الأشخاص بحجة اختلافهم عن مضطهديهم بالعرق أو الدين أو الانتماء الاجتماعي أو الإيديولوجيا السياسية"[4].

إنّ الاضطهاد الذي تعرضت له الأنثى في الرواية السورية يحمل تلك الرؤيا الذكورية التقليدية التي تجعل من المرأة كياناً ناقصاً، فكثيراً "ما رسمت الرواية السورية شخصية الأنثى، وعلاقتها بالآخرين من خلال إحساسها بازدواجية كيانها، كإنسان حر عادي من جهة، و كأنثى تحمل إرثاً عريقاً من الخنوع و الاستسلام من جهة ثانية، و لم تهمل الروايات تجسيد القناعات النفسية التي تؤمن فيها الأنثى بتبعيتها المطلقة للذكر و استكانتها التامة لحياة القطيع"[5].

إنَّ تلك الصورة السلبية للمرأة لم تكن الصورة السائدة في الرواية النسائية السورية، إذ هيّأت الحياة الجديدة للأنثى المثقفة ميادين متنوعة، دخلت رحابها حتى تتخلص من تبعيتها للذكر، بعد أن تخلّصت من أميّتها، فأفسحت لنفسها حيّزاً من الحريّة الفكريّة و الحركيّة.

إلا أنّ وضع المرأة العربية بعامة و المرأة السورية بخاصة "جزء من تراتبية قمعية شمولية تطال مختلف مفاصل و جزئيات حياتنا الاجتماعية، ثم فإنّ الرد على واقع قمع المرأة لا بدّ أن يكون جزءاً من عملية صراع اجتماعي شامل

---

[1] ينظر: بولغد، ليلى(حررته بالإنجليزية): الحركة النسائية و التطور في الشرق الأوسط، ترجمة: نخبة من المترجمين، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1999، ص16.

[2] المرعي، فؤاد: نظرية الأدب، منشورات جامعة حلب، 1982، ص16-17.

[3] قرانيا، محمد: الستائر المخملية (الملامح الأنثوية في الرواية السورية حتى عام 2000)، اتحاد الكتب العرب، دمشق، ص100.

[4] سيلامي، نوبير: المعجم الموسوعي في علم النفس، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق، 2001، ج1 ص246.

[5] قرانيا، محمد: الستائر المخملية، ص102.

ضد كل مظاهر القمع والتخلف والظلامية، ثمّ فإنّ المركزية الأولى لتلك القمعية تبدأ بالفكر الذكوري الذي أشرنا إليه سابقاً، فالذكر النمطي هو الأساس القمعي لحرية الأنثى ومتطلباتها فقد سكنه "التعالي على الأنثى بفعل الظروف التي هيّأها له المجتمع ثم تحولت الأنثى إلى تابع، وهو المتبوع، وهي الهامش وهو المتن، وهي الضعيفة المحتاجة إلى الحماية، وهو القوي المتحكم في كلِّ شيء، وقد عُزِّزت فيه هذه النزعة السلطوية منذ الصغر، واللافت أنَّ هذا الذكر كان يعطي لنفسه سلطات ربما تتجاوز الشرع و العرف والقانون، فالقانون الذي يحكمه قانون ذاتي – غالباً – نابع من جبروته وقدرته على التحكم في حياة الآخرين"[1].

فكانت الكتابات الروائية النسائية تنتقد السلطة الدينية، ليس بمفهومها الضيق المحدود، بل تلك السلطة الدينية الاستلابية القمعية التي تتمسك بالقشور الدينية لخدمة مآربها الشخصية التي انطوت على الظلم الشديد للمرأة خاصة.

لعلَّ رواية (امرأة في عيون الناس) للكاتبة (نادرة بركات الحفار) من الأعمال الروائية الخصبة التي تستعرض الكثير من المستويات السلبية التي تنال من المرأة، إذ يبدأ الظلم من العادات الاجتماعية السائدة، وطبيعة المجتمع الطبقي القاسي، وغيرها من العوامل التي تجعل المرأة ضحية على أكثر من صعيد.

إنَّ "سلمى" الشخصية الرئيسة في الرواية، عاشت طفولة غير متوازنة، إذ نشأت في حضن الفقر والحرمان، في عائلة محرومة من أساسيات الحياة، فأبوها "سليم" قد أجبره المرض على الجلوس في البيت من دون عمل، ثمّ مات نتيجة لمضاعفات المرض، فأصبحت "أم سلمى" تعمل هنا وهناك لتأمين لقمة العيش المرّة، أمّا "سلمى" فقد أحبّت الدكتور "كريم" الذي وعدها بالزواج، بيد أنّه تركها وغادر البلاد إلى فرنسا في بعثة تعليمية، ونتيجة للعلاقة بين كريم و سلمى لم تعد سلمى فتاة، بل أصبحت امرأة كاملة على حدِّ وصفها "في بادئ الأمر شعرتُ وكأنني انتصرتُ في معركة حاسمة، انتصرتُ على مخاوف أبي، وشكوك أمي، انتصرت على واقعي ولفظتُ مفاهيمي وأوهامي، ومع مرور الأيام بدأتْ زهوة انتصاري تتلاشى حين حلَّ محلّها الخوف والتساؤل، عملْتُ جاهدة على إخفاء مظاهر التوتر التي بدت واضحة على تصرفاتي، كنتُ أخشى أن تعرف أمي أو يلحظ أبي أنني أصبحت امرأة دون قيدٍ أو شرط"[2].

تلك هي البداية، و ما إن سافر كريم حتى بدأت سلمى تعمل مع أمها في بيت السيدة "وصال" المرأة المشبعة بالفكر الطبقي المتعجرف، فنرى حواراً طبقيّاً بين السيدة وصال و ضيوفها مشبعاً بالرؤيا الطبقية التي تكتظ بالحديث عن الخادمات و أسس معاملتهن.

" قالت إحدى السيدات:

_ لا شكَّ في أنَّكِ موفّقة تماماً بتلك الطاهية يا وصال؛ الطعام طيب المذاق.

ابتسمت السيدة وصال:

_ أم سلمى طاهية جيدة، تتقن فن الطهي كما تعتني بالنظافة كثيراً، و أنا كل ما يعنيني من الخدم نظافتهم.

و قالت أخرى:

_ ليس من السهل العثور على خادمة جيدة فقد أصبحن يفضّلنَ العمل في المصانع.

ضحكت امرأة ثالثة:

_ منذ أيام طَرَدْتُ خادمتي الأجنبية بعد أن أيقَنْتُ أنها تتقن الرقص الشرقي أكثر مما تبدع راقصاتنا المحترفات.

ارتفعت الضحكات في أرجاء قاعة الطعام، و بدأت الأصوات تختلط " ما سعر الدولار؟"، " لم ينجح حفل عرض الأزياء"، " مؤتمر القمة لم يأتِ بنتيجة حاسمة "[3].

---

[1] العلي، رشا ناصر: ثقافة النسق (قراءة في السرد النسوي المعاصر) ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2010، ص440.

[2] الحفار، نادرة بركات: امرأة في عيون الناس، دار طلاس، دمشق، 1988، ص 33-34.

[3] الحفار، نادرة بركات: امرأة في عيون الناس، ص57.

لقد عرض المقبوس السابق اهتمام الطبقة المتسلطة في المجتمع، و لاسيما ذلك المحور الطبقي الموجه ضد "المرأة" الفقيرة المحتاجة؛ إذ ظهرت المرأة سلعة و رقماً، يمكن الاستغناء عنه في أي وقت وبصورة عنصرية بغيضة.

إنَّ الانسحاق و العبودية و الاستلاب مراحل غير محمودة أصابت المرأة في رواية (امرأة في عيون الناس)، فالرواية برمتها تتحدث عن واقع المرأة، وتناقش الكثير من الظواهر الاجتماعية، و ظهر بوضوح الخوض في مشكلات المرأة، و ما تعانيه في مجتمع لا يرحم.

لم تدرك "سلمى" البنت البريئة غير المتعلمة – وهي تسترق السمع – المعاني الكبيرة و الخفية لحوار السيدة وصال مع ضيوفها، لكنها شعرت في قرارة نفسها بالغبن والاستلاب والقهر، وحدَّثت نفسها بالفوارق الطبقية بين منظومة (السيدة وصال الطبقية) و منظومة (الانسحاق) الإنساني الذي تمثِّله "أم سلمى" الطاهية الخادمة. "منذ ذلك النهار بدأت أفكاري تتجه نحو هؤلاء القوم، كما بدأتُ أفكِّرُ في عَظَمةِ المال، والثراء والحياة المدهشة التي يحياها أهل النِعم.

_ تساءَلتُ كثيراً، لكنني لم أجد جواباً على سؤالٍ طرحه عقلي في غمرة ضياعه.

_ لماذا تمنح الأقدار هؤلاء الأثرياء كلَّ ما يرغبون، و تحرمنا – نحن الفقراء – من أبسط الحاجات و أقلّها؟"[1].

إنّ الكلام السابق كلّه جاء على لسان "سلمى" البنت التي تعمل أمها "خادمة طاهية" في بيت السيدة وصال، فشعور "سلمى" الأنثى، هو شعور إنساني محض يعيشه الإنسان المضطهد المستعبد بعامة، والمرأة بخاصة، إذ مالت كاتبة الرواية إلى جعل كل الأحاديث تجري على لسان المرأة المظلومة المسحوقة.

لقد ظهر العذاب الإنساني متجلياً بأبهى صوره في المقبوس السابق بصورة "الحلم" المتمرد على واقع غير إنساني إطلاقاً، فالأم مُستلبة مضطهدة، والبنت تعاني الشعور ذاته، و كذلك كان "سليم" والد "سلمى" من قبل، أضِف إلى ذلك كله أنّ سلمى قد أصبحت الآن "امرأة" في علاقتها مع "كريم".

وعلاوة على ذلك كله ما زالت العادات و التقاليد الاستلابية تحكم تفكير المرأة في هذه الرواية:

" هتفت أمي ذات مساء بصرامة:

_ إلى متى ترفضين الزواج؟ لقد نجحتِ في الإعدادية و أصبحتِ في الثامنة عشرة من عمركِ، الناس من حولنا يسألون...

_ قلتُ بصوت مرتبك:

_ تُراكِ تبغين زواجي لأني كبرتُ يا أمي، أم لتصمت ألسنة الناس؟

_ أنتِ جميلة يا ابنتي أخشى عليكِ من ألسنة السوء"[2].

إنّ المقبوس السابق يعرض تكثيفاً لافتاً لرؤيا المجتمع والعادات و التقاليد حول (المرأة و الزواج)، فذلك المجتمع لا يرحم المرأة في مسيرة حياتها فهو مشبع بالأفكار والتقاليد البالية التي ورثها عن مصادر متعددة .

ورواية (زينة) للكاتبة (وصال سمير) من الأعمال الفنيّة المتوجهة نحو واقع المرأة بعد انتهاء الاحتلال الفرنسي للأراضي السورية، إذ تستعرض تلك الرواية الحالات التي مرّت بها تلك المرأة، فنرى المرأة العاملة، و المرأة المظلومة المقهورة، و الفتاة المُحبَّة، و الأنثى المتحدّية، إلخ...

تجري أحداث الرواية في منطقة ريفية قريبة من دمشق (عين الكرش)، التي تشكل النقطة المركزية لهذا العمل الروائي مكانياً، و تتوزع أحداث الرواية على أماكن أخرى قريبة من تلك النقطة، أمّا (زينة) الشخصية الرئيسة في الرواية فهي طفلة في العاشرة من عمرها تساعد أباها (سليمان – أبا خالد) و أمّها (سامية – أم خالد) في أعمال الزراعة و السقاية في الأرض القريبة من البيت، أمّا أختها (وفاء) فكانت فتاة فائقة الجمال في الرابعة عشرة من عمرها، مرهفة الإحساس، أحبّت

[1] المصدر ذاته، ص59.

[2] الحفار، نادرة بركات: امرأة في عيون الناس، ص47.

(الشيخ بدر) صديق أبيها، أمّا بقية أفراد العائلة فهم (خالد و حسن و سارة و أمل)، و (وفاء) أكبر إخوتها سناً، فتاة جميلة سمراء فاتنة.

تتشابك أحداث الرواية بتواتر فعّال بين (عين الكرش) و حارات دمشق القريبة منها، و يمكننا العودة إلى هذه الرواية لاحقاً للحديث عن المرأة العاملة فيها، بيد أننا سنستعرض المواقف السلبية الظالمة التي أحاطت بالمرأة في هذا العمل الخلّاق.

لقد أدركت كاتبة العمل (وصال سمير) أنّ واقع المرأة السورية المتقلّب يعود إلى الحقبة العثمانية التي سيطرت طويلاً على المجتمع، فانتقلت الكثير من الأمراض الاجتماعية إلى البيئة الاجتماعية السورية، وأثّرت في المرأة تأثيراً كبيراً، فدخلت التقاليد البالية، والرؤيا الظالمة القاسية لتحرك المرأة في المجتمع الذي تسوده الأوهام والمعتقدات المهترئة التي أفرزتها المفاهيم الدينية الخاطئة.

لقد تحدّثت مؤلفة العمل عن زيارة وفاء وأختها زينة لبيت جدهما (عبد الحليم) و جدّتهما (زكية)، فالجد (عبد الحليم) هو والد (أبي خالد) الابن البكر له، و تقول مؤلفة العمل: " كان الجد و الجدة كائنين جميلين جداً، تزوَّجا بعد قصة غرام لم يشهد الناس مثيلتها في ذلك الزمن الغابر.

_ لقد كانت النسوة لا ينكشفن على الرجال، و لا يخاطبن الرجال... فالحكم العثماني ترك طابعاً من الجهل و الرجعية في أوساط الأُسر العربية...

_ غدا صوت المرأة عورةً... و رؤية أي جزء من جسدها صار عورةً أيضاً... اختفت النساء خلف الأسوار المرتفعة، وراء الجدران الكتيمة...يُعانين القهر، و يُخضعن لألوان السيطرة و القسوة... كلّ شيء كان محرماً عليهن... حتى الحب"[1].

يعمل المقبوس السابق من الرواية على تكثيف المرتكزات الأولى للظلم الذي لحق بالمرأة السورية، فقام الحكم العثماني بترسيخ الكثير من العادات و المفاهيم الدينية و الأمراض الاجتماعية التي أساءت إلى المرأة بخاصة، فكل شيء لدى المرأة هو عورة، و لهذا تعرضت المرأة إلى ضروب كثيرة من القمع والاستلاب والاضطهاد، فسيطر المنطق الذكوري السلطوي الذي صبّ بسلبياته وقسوته على المرأة، و انتقص ذلك الحكم الرجعي من المرأة في حاجياتها، ورغباتها، وإرادتها الكريمة في الحياة.

و امتدت المؤثرات الاجتماعية المهترئة زمنياً واجتماعياً إلى مراحل متأخرة من تطور المجتمع السوري، فبقيت مخلفات المرحلة السابقة تظهر بين الفينة والأخرى في العادات والتقاليد التي تطال المرأة، فتجعلها مكفوفة عن أداء دورها الاجتماعي الخلاق.

أمّا (أم خالد – سامية) والدة وفاء وزينة، وزوجة (أبي خالد – سليمان) فلها قصة طويلة مكتظة بأنواع القهر والظلم قبل أن تتزوج (سليمان) ذلك الرجل الذي يسافر إلى الدول المجاورة لبيع البضائع و العودة ببضائع أخرى، فقد عاشت (سامية) في الماضي سنوات طويلة من اليتم و الحرمان، ذلك أنّ "أختها كانت قد تجاوزت سنتها الخامسة والثلاثين، لبُها القاسي كحجر الجلمود لم يحن على الطفلة اليتيمة، مات أبوها و هي في الخامسة من عمرها، و لحقَتْهُ أمها و هي في سنتها التاسعة، و أدركت معاني اليتم في بيت أختها من أمها، و كانت وحيدة لأبيها، راحت مع مرور الأيام تحسّ بفداحة الخطب فقد كان لها أخ أيضاً و هو يكبرها بسنين عديدة، و كان التشابه الكبير في السلوك يقرّب الأخوين الكبيرين من بعضهما بعضاً، و تزداد وحشة الصغيرة اليتيمة...فلا تجد لها في هذا البيت قلباً رحيماً"[2].

و تلك هي النقطة الأولى في حياة (أم خالد–سامية) الماضية، فقد عاشت عزلة اجتماعية و وحدة قاتلة قسرية يعشش فيها الخوف وعدم الأمان، فقد كانت تلك الفتاة "مرهفة الإحساس، متيقظة الشعور...ولاسيما عندما أدركت معاني يتمها...فأختها فاطمة تجبرها على القيام بأعمال قاسية كخياطة الجلود، و أصابعها الرقيقة لا تحتمل هذا النوع من العمل، وعندما كانت

[1] سمير، وصال: زينة، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق، 1992، ط2، ص51.
[2] المصدر ذاته، ص60.

تعجز عن إتقانه تأتيها صفعات فاطمة و لكماتها، و تنهال عليها شتائم زوج أختها، فتصمت الصغيرة صمتاً مرّاً، و تبكي بكاءً حاراً عندما تجد نفسها وحيدة، حياتها في بيت أختها شبيهة بحياة القطط، إحساسها باليتم، وإحساسها بالتشرد، كانا يلفّانها في نطاق دائرة مغلقة، وكانت كلّما أحسّت بازدياد نبض قلبها، و كلّما رَنَت إلى مرآتها فرأت تَفَتُّحَ جمالها و حيويتها، يزداد خوفها من أختها، و كانت تلمح خيوط المؤامرة، تُحاك حولها، و كأنّ الغيرة تستعجل فاطمة للثأر من فتنة هذا الوجه الأسمر، و من هذا القوام الفارع، فَقِصَرُ قامتها، و دمامة وجهها كانا يدفعانها إلى إظهار أنيابها، و إلى الدوس على زنابق أختها البيض، كانت سامية تطمح بالزواج من شاب وسيم، يقاربها في السن ويماثلها في الشعور، وكانت أختها تطمح لتزويجها من عجوز طمعاً في مهر كبير، لذلك زرعت في وجهها السدود، و أقامت المطبات في طريق زواجها من ذلك الفتى الذي جاء يطلبها للزواج" [1].

لقد استعرضت الكاتبة تكثيفاً لحياة الفتاة السورية التي لم تسعفها ظروف الحياة السعيدة، فالظلم و العادات و التقاليد و الاستلاب أمور سيطرت سيطرة تامة على (سامية) و استلبت مقومات حياتها المتوازنة، فاليتم جاء عنيفاً على (سامية) ولهذا هي مولعة بزوجها (سليمان)، فهو مصدر التعويض الرئيس في حياتها في هذه الآونة" و كانت رحلاته إلى لبنان و الأردن و العراق لا تستغرق سوى أيام معدودات، و بالرغم من ذلك فهو يأتي مشتاقاً، متلهفاً طالباً الوصال و البقاء إلى جانبها، إلفان اتحد نبضهما... و كانت أم خالد تنتظره بفارغ الصبر، وتحسُّ بالوحدة والوحشة إذا ما غاب عن بيتها، فخالد وحسن مازالا صغيرين، وهي تخاف على ابنتيها، وخوفها الكبير انصبَّ على وفاء، وأكثر ما كانت تخشاه أن يستغل الغرباء غياب زوجها، فيهاجمون البيت وعندها لن تجد من يحميها"[2].

فقد شكّل (سليمان) – زوجها – بنية نفسية تعويضية عن مراحل حياتها الماضية المؤلمة، بل أصبح جزءاً لا يتجزأ من توازنها على غير صعيد، بعد أن عانت ماضياً طويلاً من القهر و القسوة و الظلم و الضرب على يد أختها فاطمة، التي عاشت في كنفها "حياة يملؤها الشقاء و القسوة و الألم، و حملت في صدرها الحنان المتدفق، و كان يُشِعُّ في الماضي من عيني أمها المحِبَّتين، رحلت تلك الأم و تركتها و حيدة و ضعيفة تحسُّ بالعجز أمام هؤلاء الوحوش الآدميين، لا تنسى سامية، ولا يمكن لها أن تنسى.. ذلك اليوم الأسود...تلقّت فيه صفعات و ركلات أختها...دَفعتها بوحشية إلى عتبة الغرفة و بدأت تشدُّ شعرها...حتى أدمتها... نهضت الفتاة من مكانها فزعة و انطلقت تفتح الباب... وخرجت إلى الحارات و الأزقة لا تلوي على شيءٍ، قادتها قدماها إلى مقبرة الباب الصغير حيث دُفِنَت أمها...جرت الطفلة، لم تتجاوز وقتها العاشرة، بين القبور ووصلت إلى قبر أمها، ارتمت عليه، تبكي وتنشج، وتمسح دموعها، ومخاطها، بذيل ثوبها و بأكمامها. حكت لأمها حكاية بؤسها، ساءَلتها بمرارة، لماذا غادرتها، و تركتها وحيدة بين يدي أخت لا ترحم، و أخ مليء بالقسوة"[3].

نحن في الحقيقة أمام مشهد روائي مؤثر، يحمل في طياته تاريخاً من القهر و الظلم و الوحدة، و يحمل من جهة ثانية سمات(سامية) الإنسانية التي تحتفظ بالكثير من الحساسية والجمال وحبِّ الحياة، فقد عرضت مؤلفة العمل سمات كثيرة لحالة (سامية) وعلاقتها بالواقع المحيط الذي لا يرحم، ثمَّ إنّ رواية (زينة) قد طرحت المرأة المتسلطة (فاطمة) التي تشكل قوة استلابية سلطوية بما تحتفظ به من غيرة و تقاليد بالية و رؤيا محدودة على أقل تقدير.

واللافت في المقبوس السابق تلك الدلالات الجزئية والتفاصيل الصغيرة لحياة (سامية) الماضية والتي تجلب التأثير الكبير في المتلقي، إذ تتصادم إنسانية (سامية) العالية بواقع عالي القسوة والظلم، ولا سيما أن ذلك الظلم قد أتى من أقرب المقرَّبين إليها، غير أن الضغينة الموجهة نحو (سامية) كانت عمياء تحكمها الأمراض الاجتماعية المتجذرة في المجتمع والبيئة، ناهيك بأنّ الكاتبة قد عرضت الصراع النسائي – النسائي إن صح التعبير.

[1] المصدر ذاته ص، 60-61.
[2] سمير، وصال: زينة، ص 59.
[3] المصدر ذاته، ص62

و تتابع الكاتبة استعراض الماضي المرّ لـ(سامية) بتوصيفٍ قاسٍ، ولا سيما عندما نامت (سامية) عند قبر أمها " فلم تشعر بالوقت يمضي بسرعة، و إذا بالطفلة تغفو عند أسفل الشاهدة تماماً، لم تعرف كم من الوقت مضى، كل ما تتذكره أنها فتحت عينيها فوجدت الظلام يلفها من كل جانب، يسدل ثوبه الفضفاض على القبور جميعها، غرقت الفتاة في العتمة، و ظهرت الشواهد أمامها أشباحاً هائلة تتحرك ببطء في طريقها إليها، أقدامها طويلة، تنغرس في الأرض، و ترتفع في الفضاء، رأت أيضا شبحاً عملاقاً مغطّاً بكفن أبيض، يخطو بخطوات واسعة... و يكاد يصل إليها، عواء الكلاب عكّر صفو الليل، و أيقظ الأشباح فما كان منها إلا أن حملت قبقابها، و انطلقت كالسهم، حافية القدمين هاربة من الشبح الهائل... من غولٍ يودُّ افتراسها، و تمزيق لحمها الغض، جرت و جرت، و لم تلتفت إلى الوراء كانت خائفة و هلعة، تتساءل بجنون، أتصل بيتها بسلام؟"[1].

تمتزج في المقبوس السابق القدرات الفنية التصويرية للكاتبة بالانهيار النفسي لـ(سامية) الطفلة الجميلة المرهفة الحس، ولم يقتصر الأمر على شعور تلك الطفلة بالسوداوية والتشاؤم، بل تفاقم إلى تهيؤات وتداعيات تنبئ بمقدار ذلك الانهيار النفسي، وعلاوة على ذلك فإنّ شعور سامية بالسوداوية قد تعمم على الواقع المحيط، فالليل صار مخيفاً جداً، و تفاصيل الطبيعة لم تعد متوازنة، و ازداد رعب المقبرة رعباً، فأصبح لدى سامية ذلك الإحساس بأنّ المحيط بمجمله يقف ضدها، فهي تهرب من الظلام و القهر إلى ظلام آخر، و ما قامت به سامية من حديث إلى أمها الميتة ليس سوى نوع من التعويض النفسي، ولكن الحديث لا يسمن ولا يغني من جوع .

- **المرأة العاملة:**

ندرك إدراكاً جليّاً في هذا المبحث أنّ الجانب الواقعي هو السائد في الرواية النسوية التي تنطوي على حياة المرأة العاملة، ناهيك أن الظروف الاجتماعية أسهمت إسهاماً واضحاً في علاقة المرأة بالعمل في مرحلة زمنية طويلة، بناء على مفهوم الانعكاس الذي وقفنا عليه سابقاً.

لم تقتصر رواية (زينة) للكاتبة (وصال سمير) على المرأة العاملة الواحدة، بل تعرض الكاتبة وجوهاً نسائية متعددة لتلك المرأة، إلا أن الشخصية الرئيسة في مستويات العمل تبدو (زينة) التي وقفنا عليها سابقاً في حديثنا عن النقاط الرئيسة للرواية التي تقع أحداثها في منطقة (عين الكرش) ذات الطبيعة الساحرة الخلابة، و لا ريب في أن المرأة العاملة في هذه الرواية الواقعية تشكل نموذجاً واضحاً لمسألة الانعكاس ذات العلاقة الجدلية بين الواقع والفن، إن الشخصية الرئيسة في الرواية (زينة) التي لم تبلغ الخامسة عشرة من العمر، تحيط بها البراءة في سيرورة حياتها، فهي الفتاة القوية العاملة التي ترعى البيت، وأبوها يعتمد عليها اعتماداً كبيراً في الحياة الأسرية في القرية القريبة من دمشق..." أعادت زينة ترتيب البيت، فأنهت الدور العلوي، ثم انتقلت إلى الدور الأرضي، ثم التحقت بأبيها...فأخذت سطلاً ...وحلبت البقرة...امتلأ السطل حتى حوافيه...و أصبح الحليب كافياً لطبخ أكلة الرز بحليب...المحببة إلى نفوس الجميع... وضعت زينة سطل الحليب على الطاولة ... المتوضعة في إحدى زوايا المطبخ... حيث كانت أمها تروح و تجيء، تعيد ترتيب الأواني الكثيرة، خلفها الأولاد بعد انتهاء الفطور. العمل في المطبخ... كان ممتعاً... فأم خالد لا تحس بالعزلة في هذا المكان... فهي تغسل الأطباق و تجففها، و ترى من النافذة اليمنى زوجها، و هو يتجول في الحقل هنا و هناك... يجمع ما يراه أمامه من أنواع الخضروات"[2].

تستعرض (وصال سمير) في المقبوس السابق حياة العائلة، و هي حياة بسيطة غير معقدة تقوم على العمل لبناء أسرة متماسكة متحابة، إذ تقوم (زينة) بعملها في البيت وخارج البيت، في الحقل القريب من البيت، وحلب البقرة و أعمال أخرى، فبدت زينة – على الرغم من صغرها – امرأة فعالة في بناء عائلة متماسكة يسودها الحب و الأمان.

[1] المصدر ذاته، ص62-63.
[2] سمير، وصال: زينة، ص12.

و قد هدفت (وصال سمير) إلى وضع المتلقي في صورة الحياة التي يعيشها المجتمع المحلي في قرى دمشق القريبة من العاصمة، كذلك تسليط الضوء على العادات و التقاليد في تلك القرى؛ و كيف تقوم المرأة بدورها في بناء العائلة و المجتمع، إذ يُعَدُّ هذا الهدف صورة واضحة لمفهوم الانعكاس الذي وقفنا عليه سابقاً.

و طرحت المؤلفة – عبر زينة – الفتاة العاملة القوية التي تفوق الصبية و الشباب في قوتها، و كان الجار (أبو فارس) يقول لأبيها " ليتك تعطيني زينة و تأخذ شابين من أولادي بدلاً عنها... كان أبو خالد، يُسرُّ لهذا المديح المبطن... و من الإشارة إلى تفوق زينة على أترابها... فيجيبه بأنها تعادل لديه عشرة من الصبية...فلولا زينة...لما سارت الأمور ...على ما يرام في تلك الأرض الرحبة و الممتدة على طول المدى...عند النبع...كان الجيران ...يجتمعون في الصباحات المشرقة و في ساعات ما قبل الظهر...أو يأتون في وقت الغسق...فكانوا يتبادلون الأحاديث حول أحوال الطقس...حول الزراعة...وصعوباتها..."[1].

و هنا تتفرع الأحداث الوليدة من عمل المرأة في هذه القرية (عين الكرش) فتبدو زينة امرأة قوية فعّالة تعادل في عملها قوة الكثير من الصبية في المنطقة، بل إن الكاتبة أرادت إبلاغ القارئ أن المرأة في المجتمع السوري، في كل الأزمنة، أدّت دوراً حيوياً في بناء الأسرة و المجتمع متحدية كل التقاليد والأعراف البالية، ثمّ إنّ أباها (أبا خالد) يعدُّ شخصية عظيمة تقدّر عمل المرأة بصورة كبيرة، فيتخلى (أبو خالد) عن الكثير من العادات والتقاليد والأمراض التي كانت تصيب المجتمع في نظرته إلى واقع الفتاة وعملها داخل البيت وخارجه على أقل تقدير.

وتتابع الكاتبة سرد الحدث الذي يقوم على (العمل): "كانت الأسماك تخرج من تلك المغارة، فلا يلبث الرائي أن يلحظ سمكة كبيرة، تخرج منها، فتكون زينة لها بالمرصاد، تتابع حركتها و هي تشق بجسدها الماء، ثم تتقدم نحو فتحة النبع...محاولة الانزلاق إلى الساقية، تتلقفها زينة، وتلتقطها بصنّارتها، تتلوى السمكة بين يديها محاولة الهرب، ولكن...أنّى لها الخلاص من يدي زينة... بأعصابها المتينة...وبنية جسدها القوية...لم تنج منها حتى ولا سمكة واحدة، تمسك بقوة بفرخ السمك، تسلمه أمانة لأمها، التي تقدمه شواءً، و كان من شأنه تغيير طبيعة الجبة في وقت الغداء حيث يلتم حوله أفراد العائلة، متمتعين بمذاقه اللذيذ... ثم يشكرون ربهم على نعمه التي أنعمها عليهم، و كانت العصافير الصغيرة، إحدى الوجبات المميزة أيضاً... تجمعها زينة من الأعشاش الموزعة بين أغصان الأشجار الملتفة بخفة و رشاقة... تذبحها بيديها الصغيرتين... تنتف ريشها و تُقدِّمها نظيفة لأمها التي تكثر المكوث في المطبخ أكثر من خروجها إلى الحقل"[2].

تتعدد مشاهد العمل في المقبوس السابق، و تتداخل تلك المشاهد بالطبيعة الخلابة التي تحيط ببيت (أبي خالد) و زوجته، و تضعنا المؤلفة (وصال سمير) في تفاصيل الأعمال التي تقوم بها (زينة) الشخصية الرئيسة في الرواية، فيدرك القارئ طبيعة الحدث و تشابكاته و ظروفه و الأجواء المحيطة بزينة؛ إذ تظهر البراءة و القوة معاً، و تظهر المرأة أيضاً بعفويتها و وعيها في جو أسري متماسك، أضف إلى ذلك فقد ظهرت المرأة الكادحة القوية التي تستطيع العائلة التعويل عليها، و إسناد الأعمال الكبيرة و المضنية لها، و علاوة على ذلك إظهار البيئة السورية بتنوعاتها و انعطافاتها.

أضف إلى التواتر الكثيف لعمل زينة في الرواية فإنّ (أمها–أم خالد) شخصية رائعة حبّاً وعملاً وكفاحاً، فهي تحب زوجها حبّاً عظيماً، و تعمل بكلّ تفانٍ في خدمة العائلة على الرغم من أنها عاشت حياة ماضية، ملؤها البؤس و الشقاء، والآن عوضها أبو خالد عن كل شيء " تحسُّ نفسها و كأنها معه... فترتسم ابتسامة سعادة على شفتيها... و هي تحب عشّها الزوجي"[3]، و لذلك فإنّ عملها في البيت مهما كان قاسياً و متعباً فإنّه يشعرها بالراحة المطلقة في ظلّ حبها لزوجها (أبي خالد) و أولاده، و تقوم أم خالد بالزيارات الضرورية لأقربائها، و لاسيما في مناسبات الأعياد و الولادات و الأعراس و

[1] سمير، وصال: زينة، ص15.
[2] المصدر ذاته، ص18.
[3] المصدر ذاته، ص12.

الموت " أمّا الوقت الباقي، فكانت تقضيه، متنقلة بين المطبخ، و بين الإسطبل، تنظفه بمساعدة زينة، و في وقت الفراغ، كانت تجلس على أريكتها...المستندة على جدار البيت الأمامي...و المشرف على مياه النبع، تطل من هذا المكان على مياهه...و تنظر إلى الحقول المجاورة، و تغرق في أحضان الطبيعة، و كأنها تحيا في جزيرة نائية، و لا ينقصها شيء في العالم المحيط بها"[1]. وهنا ندرك تماماً أن العمل الذي تقوم به أم خالد ليس سوى استكمال لحبِّها لزوجها و عائلتها، و مهما يكن ذلك العمل قاسياً في المطبخ و الإسطبل و الحقل، فهو يشكِّل اتصالاً وثيقاً بالحب و قطيعةً مع الماضي البائس، و هذا العمل – حقيقةً – هو استكمال للأجواء الأسطورية التي تعيشها (أم خالد) بين أحضان الطبيعة، و بين عائلة متحابة متماسكة أيضاً.

أما في رواية (امرأة في عيون الناس) فتقوم أم سلمى بالإلحاح على زوجها ليسمح لها بالعمل، حتى يتمكنوا من تأمين احتياجات العائلة ذلك أن "سليم" زوجها عاجزاً عن العمل لمرضه: "– دعني أعمل يا سليم، ما زلت أقوى على العمل في بيوت الناس.

– سلمى كبرت، إنها توشك أن تصبح في السابعة عشرة من عمرها، من يطلب الزواج منها و أمها طاهية؟؟

_ كيف نعيش؟ من أين ننفق يا سليم؟ سلمى تحتاج إلى الكساء و الغذاء و..."[2]

شعرت الأم بالواقع الأليم الذي يحيط بالعائلة، فقررت من خلال العمل إنجاز نوع من التوازن النفسي الاقتصادي على أقل تقدير، وبوعي خلاق للمحيط ومتطلبات الأسرة، ثم إن الأم كانت تملك وعياً اجتماعياً دينياً يخضع للرقيب الاجتماعي، وذلك عندما توجهت بالكلام إلى زوجها قائلة:

"– الله يرزق من عباده من قام و عمل، كيف يرزقنا و نحن لا نعمل؟!.

–اعملي يا أم سلمى، اطرقي أبواب البيوت الغريبة، من يدري، ربما ننجو من الفقر و العوز"[3]. قامت أم سلمى في المقبوس السابق بالميل إلى (الحجاج) الديني لإقناع زوجها الذي اقتنع أخيراً بعملها لتأمين حياة لائقة.

– **التحدي رداً على الظلم الاجتماعي:**

يشكل التحدي نوعاً من أنواع التمرد النسائي في الرواية النسائية السورية، لأن التحدي جاء رداً شرعياً على الظلم الاجتماعي و الحالة البائسة لبعض العائلات السورية، ناهيك بأن ذلك التحدي كان موجها نحو النمط الذكوري الذي لطالما نال من واقع المرأة في ظل الإقطاع والاستعمار، فقد جعلت وصال سمير في رواية (زينة) من الظلم الاجتماعي حافزاً على التحدي، فالجدة "زكية حطّمت الأسوار واجتازت العقبات عندما أحبّت، فقد كانت زكية تتقن فن الرقص، وفن الغناء، فجعلتها النساء قبلة لمجالسهن، واستقبالاتهن، و في إحدى الحفلات قامت زكية – وكانت شابة في ميعة صباها – و بدأت تتمايل بقدّها الميّاس، و بجسدها الفاتن كما فلّة ناصعة كالثلج"[4] إذ استطاعت الجدّة (زكية) في ريعان صباها أن تخترق المألوف و القواعد الصارمة الظالمة، و خرجت إلى المجتمع بحريةٍ كبيرةٍ غير معهودة.

إنّ (وصال سمير) كاتبة الرواية أرادت – من خلال تمرّد زكية – أن تضع المتلقي في أبعاد شاسعة، و رؤى متنوعة لحالة المرأة (بتنوعها و شرائحها)، إذ تحاول المرأة دائماً أن تجد لها مكاناً مرموقاً في المجتمع، و حرية في مشاعرها، و لاسيما في حبّها لفارس أحلامها (عبد الحليم) الذي أصبح زوجها:" عيناه علقتا بصفحات عينيها لا تبارحهما، و يظهر أنّ الشاب كان يبادلها نفس الشعور، فهو يخلق المناسبات لرؤيتها عن بعد... فمرةً تراه على السطح... و مراتٍ أخرى يمرّ أمام بيتها...فيرتكن زاوية هادئة...و يكتفي بالنظر إليها من مخبئه...ذات يوم... وكانت تنطلق وحيدة في اتجاه حي الكيوان قاصدة إحدى قريباتها هناك، و عندما توغلت في البساتين، و غرقت في خضرة الطبيعة، و أحاطت بها بيارات البرتقال و

[1] المصدر ذاته، ص18.
[2] الحفار، نادرة بركات: امرأة في عيون الناس، ص19.
[3] المصدر ذاته، ص21.
[4] سمير، وصال: زينة، ص51.

النارنج و الكبّاد و الليمون الحلو و الليمون الحامض و الصّبار، رأته أمامها في مفرقِ طرقٍ... و قد انتصب أمامها كإلهٍ أسطوري... سارا معاً بحذاء ساقيةٍ... كانت مياهها تتماوج بين الحقول ، و تمتدّ برّاقة في الجانب الأيمن من الطريق الزراعي... كان في نظرته شوقٌ جامحٌ لرؤيتها"[1].

وهنا ندرك جانباً من العلاقة بين (زكية) و (عبد الحليم) في الماضي، و هما الآن جدّان و زوجان عزيزان، و تلك العلاقة تشكّل تحدّياً للمجتمع و تمرّداً على كثير من القيم و التقاليد المحيطة.

ففي غمرة القهر و الظلم و الاضطهاد الذي تعانيه المرأة في تلك الآونة، تظهر ملامح الأمل وبوادره بخلاصٍ خلّاقٍ قائم على مشاعر إنسانية سامية، قوامها الحب والعاطفة الجيّاشة، إذ أظهرت مؤلفة العمل تلك العلاقة بين (زكية) و (عبد الحليم) بصورة أسطورية خلّابة في أجواء الطبيعة، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى أظهرت مؤلفة العمل علاقة (زكية) و (عبد الحليم) عبر قدرات فنية، تضع المتلقي في جزئيات الطبيعة وتفاصيلها، (أشجار الليمون – النارنج – الكباد – الصبار –إلخ...) حيث تلك الطبيعة الفطرية البريئة تحتوي علاقة إنسانية سامية أنجبت زوجين رائعين.

لقد عمدت كاتبة العمل إلى توفير أجواء جمالية طبيعية و فنية لبثِّ صورة ذلك الحب الأسطوري بين (زكية) و (عبد الحليم)، ثم تعزيز موقف المرأة في كسر الأصفاد و الأغلال التي تحيط بها، و تقف حائلاً دون حريتها.

و في مستوى آخر من الرواية تعرض الكاتبة قوة المرأة (العاملة–زينة) و هي تقارع (ناصر) ابن الجيران على ساعات السقاية المخصصة لكل عائلة:" أمسكت زينة بالرفش... و فتحت سدّاً ترابياً صغيراً كانت قد رَفَعته قبلاً فاخترقت المياه فتحة السد الصغير...وتدفقت عبر المسكبة الأولى...ثم انسابت بتراخٍ إلى المسكبة الثانية فالثالثة... وكانت تعلو و تهبط فتشكل مع تعرجات الأرض أخاديد طبيعية جميلة... وعلى حين غرة...وصلها صوت ناصر يهدد و يتوعد مؤكّداً لها بأن تلك الساعات هي ساعات السقاية لبستانه، بدا ناصر قوياً بزنديه العاريتين، و قد ارتدى لباس السقاية و أسرع و في نيته فتح شجار معها كما كانت عادته دائماً. وصل إليها يمتطي حصانه، و كان هذا الحصان أقرب في شكله إلى البغل منه إلى الحصان، بدا متحفزاً، مستعداً للمشاجرة... وقفت زينة قبالته... لا تعيره أية قيمة، لم تبدِ أي خوف منه... بل على العكس من ذلك و على الرغم من صغر سنها... و تقدّمه عليها بعدد من السنين...فقد وقفت أمامه متحدية...غير خائفة ولا وجلة"[2].

يتفرع عن المقبوس السابق حدثٌ فريدٌ من نوعه، بل أحداث فريدة من نوعها، فالعمل الذي تقوم به زينة في السقاية هو عمل جبار لا يقوم به إلا أقوياء الرجال، غير أن زينة قادرة على القيام به، ثم إن التحدي الذي تملكه (زينة) يعادل ما يملكه (ناصر) من قوة جسدية، و هنا استعراض واضح لطبيعة العلاقة بين المرأة العاملة و المحيط الإنساني و الطبيعي. إذ وقفت (زينة) موقفاً رجولياً لا يكترث لما يمتلكه ناصر من قوة و شدة و تابعت عمل السقاية و الحفر من أجل تأمين المياه للحقل و الزراعة، فكان عملها يكتسب مشروعيته الخلّاقة التي تقارع عمل الرجال، فظهرت زينة أكثر قسوة و قوة و تحدياً و وعياً من (ناصر) الذي استهزأ به أبوه بعد أن رمت به زينة في الساقية. " ركب ناصر رأسه و طلب إليها بإلحاح ... أن تغلق الساقية... لتعود المياه إلى بستانه... أصرت زينة على رأيها... و عندما اشتد صياحه... و انطلقت شتائمه، حملت عصا غليظة، و ضربت بها الحصان... ثم اقتربت منه بسرعة و جذبته أرضاً... فوقع من على ظهر الحصان... حركتها السريعة و المباغتة أفقدته توازنه...فسقط في الساقية و هو يسبُّ و يلعن... ثم اشتبكت معه في عراكٍ... جاء الأهل و فصلوا بين الاثنين... أبو ناصر يشتم ابنه... ثم يعتذر لأم خالد و يمسح رأس زينة... و يقبلها في جبينها، و زينة تصرّ على ضرب ناصر"[3].

[1] سمير، وصال: زينة، ص 52.
[2] المصدر ذاته، ص39.
[3] سمير، وصال: زينة، ص39.

إن إدراكنا لمبدأ التحدي و القوة، و قد دفع مؤلفة العمل للقول بالتفوق النوعي لعمل المرأة على الرجل، وهذا التفوق حملته زينة بصورة التحدي و القوة و الوعي أيضاً.

أما في رواية امرأة في عيون الناس فقد نجحت سلمى في التغلب على النمط الذكوري في الرواية بما يحمله من تفكير فاسد و عادات و تقاليد بالية؛ إذ رفضت سلمى العودة إلى زوجها بعد أن عانت منه ما عانت من قهر وعذاب:

"– أريد أن تعودي إليّ زوجة.

هتفت غاضبة: لماذا؟ لأكون خادمتك؟ أم لأسجن في البيت؟! أم لأنفق عليك؟ لو أنهم قاموا على فحصك في السجن لما سمحوا لك بالخروج منه.

تلاحقت أنفاسه، و صاح بحقد: أتسخرين بي يا سلمى؟ وأنا الذي رضيت بك حين طردك من أسلمت له نفسك...أنا..

لملمت شجاعتي و قلت بقوة: لا تبالغ في تقييم نفسك، فلست سلعة في متجرك. لقد طلقتني منك المحكمة و هذا كل ما كنت أرجوه. فاخرج من البيت فورا"[1].

الخاتمة و نتائج البحث:

خلص البحث إلى تلك الحساسية و الشعور المرهف المغرق في التأمل و الحب الذي يحيط بالمرأة، و هي تقاوم شتى أنواع الاستلاب والظلم والقهر الاجتماعي.

كذلك فإنّ البحث قام على صراع متواتر بين الأنثى و المنطق الذكوري الذي ينظر إلى المرأة بوصفها جسداً، أو شيئا قابلاً للاستهلاك، فحاولت الرواية الخلاص من هذا الواقع عبر إظهار شخصيات نسائية قادرة على إدارة الأسرة، ثم إدارة المجتمع بدءاً من أصغر نواة اجتماعية، فأصبحت المرأة سنداً للرجل، ومعيناً للأب والأم.

إن الطرح الروائي السابق في الروايتين استطاع أن يخلص إلى الكثير من نقاط الوعي التي أحاطت بالمرأة السورية، فلم يقتصر ذلك الوعي على تحدي الواقع، بل تجاوزه إلى العودة إلى الموروث الديني و الاستشراف المعرفي الذي كان كفيلاً بتكوين رؤيا جمالية معرفية استنباطية.

وقد فرضت الروايتان الكثير من النماذج النسائية الإنسانية التي اخترقت العادات و التقاليد البالية نحو تأسيس استقلالية ما للمرأة بعيداً عن شوائب الواقع.

المصادر و المراجع:

المصادر:

1– الحفار، نادرة بركات: امرأة في عيون الناس، دار طلاس، دمشق، 1988م.

2– سمير، وصال: رواية زينة، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق، 1992م.

المراجع:

- إبراهيم، رزان محمود: خطاب النهضة و التقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمّان، 2003م.
- أبو نضال، نزيه: تمرد الأنثى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت، 2004م.
- الأمين، إحسان: المرأة أزمة الهوية و تحديات المستقبل، دار الهادي، بيروت، 2001م.
- بولغد، ليلى(حررته بالإنجليزية): الحركة النسائية و التطور في الشرق الأوسط، ترجمة: نخبة من المترجمين، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1999.
- حرب، علي: الممنوع و الممتنع (نقد الذات المفكرة)، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1995م.

[1] الحفار، نادرة بركات: امرأة في عيون الناس، ص169-170.

- الرحبي، مية: النسوية مفاهيم و قضايا، الرحبة للنشر و التوزيع، دمشق، 2014.
- سيلامي، نوبير: المعجم الموسوعي في علم النفس، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق، 2001م.
- العلي، رشا ناصر: ثقافة النسق (قراءة في السرد النسوي المعاصر) ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2010م.
- قرانيا، محمد: الستائر المخملية (الملامح الأنثوية في الرواية السورية حتى عام 2000)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2004م.
- واتكنز،سوزان، و رويدا، مريزا، و رودريجوز، مارتا: الحركة النسوية، ترجمة: جمال الجزيري، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005.